المحاولة التي شارك في وصفها كلٌ من «داعية القومية العربية»، و«الناطق باسم المؤسسة الدينية التقليدية»، وأخيراً «الناطق باسم المؤسسة الماركسية اليسارية»، قد استهدفت، في نتائجها، محو واقصاء الصورة الاصلية للقسام. وقد طرحنا سؤالاً حول مغزى هذا اللقاء بين هذه الاطراف جميعاً، تركنا اجابته لهذه الصفحات. ولكننا قبل المضي في ذلك، نرى من الضروري ان نتوقف لتوضيح بعض الالتباسات التي يمكن ان يثيرها التصنيف الذي اعتمدناه في اثناء تسميتنا لهذه الاطراف، وذلك بالتشديد على الجانب الايديولوجي والفكري من هويتها. ان هذا التصنيف له ما يبرره من جانبنا، وذلك لأن غرض البحث، كما حددناه، يتناول بحث الجوانب الايديولوجية، اكثر من أي مسألة أخرى. ولهذا، فان وضع المسألة، بصورة مسبقة، في اطار يعتمد التصنيف الايديولوجي لجميع الاطراف التي لها علاقة بالحركة القسّامية، موضوع هذا البحث، يخدم الهدف الاساسي الذي نسعى إلى تحقيقه. أما الالتباس الآخر، الذي نريد ان نوضحه، فهو ما يمكن ان تثيره عملية الدمج التاريخي، والخلط الذي اتبعناه، حينما الحقنا طرفاً ثالثاً، ينتمي إلى حقبة متأخرة، من الناحية التاريخية، للفترة مدار البحث؛ نقصد بذلك اليسار الفلسطيني كما هو معروف الآن. لكن هذا الالتباس يمكن ان يزول، حينما نلاحظ ان هذا الطرف كان اكثر الاطراف التي أبدت الاهتمام بالحركة القسّامية، وكان الطرف الوحيد، تقريباً، الاكثر حماساً للاستفادة من الاشكالات التي رافقت الدور السياسي الذي لعبته الحركة القسّامية، في اطار علاقتها بقيادة الحركة الوطنية الفلسطينية، لتوظيفها في اطار علاقات مستوى تاريخي آخر، هي العلاقة التي تربط هذا اليسار بالقيادة الحالية للحركة الوطنية الفلسطينية.

يبقى، بعد توضيح هذين الالتباسين، ان نشير إلى اننا، ولاسباب محض تقنية تخدم البحث، سوف نتجاوز التحقيب التاريخي في بحث مواقف هذه الأطراف، مخترقين مؤقتاً هذا التسلسل الذي وصفناه في تصنيفنا السابق، لنبدأ من النقطة الأخيرة، أي من الصورة التي يطرحها الخطاب اليساري لشخصية القسّام.

يمكن، القول، بصورة عامة، ان الاهتمام المبكر الذي ابداه اليسار الفلسطيني للتجربة القسّامية، كان يملي، في الأساس، رغبة ملحة لاعادة صياغة وعي الهزيمة التي تلقتها الحركة الوطنية الفلسطينية، في مرحلة تاريخية كانت هذه الحركة بدأت تؤسس لانطلاقتها من جديد. ولكن كما هي الحال، دائماً، في أي صياغة ايديولوجية من هذا النمط، كانت القراءة التي تتوجه إلى الماضي، تتم وفق اغراض، وضرورات، يمليها الحاضر واشكالاته قبل أي شيء آخر. ولذا، لم يكن الخطاب اليساري، وهو يعيد قراءة هذا الماضي، ويستعيد في وجدانه مرارة التجربة الماضية، ليغض الطرف عن عناصر التشابه التي بدأ يلاحظها، بين ما كان عليه الماضي، والصورة الحاضرة الآن.

لقد فكر مراراً، وهو يتأمل صورة الماضي، ليرى ان شيئاً جوهرياً لم يطرأ على الصورة السابقة؛ فالقيادة التاريخية التي تصدرت الحركة الوطنية الفلسطينية في السابق، تتشابه في طريقة تفكيرها، واسلوبها، واصولها الطبقية، والقيادة الجديدة؛ وان كان يقر ببعض أوجه الاختلاف، فان هذا يتناول التفاصيل ولا يصل الى الجوهر. أما الموقع الذي كانت تحتله القوى «الثورية» و«الجذرية»، التي يسلّم بشبه غيابها في السابق، فهي، وان عاد لينطق باسمها ويؤكد حضورها من جديد، فانه يعرف، اكثر من غيره، مقدار حجم تأثيرها الفعلي على